عودة الـــــى الوطـــــن

يسرى الأيوبي

جلست منى في مقعد الطائرة ولوّحت بيدها للمرة الأخيرة الى حيث وقـف خطيبها سامي بين المودعين في ساحة المطـار.. الطـائرة محتـشدة بـالطلاب السوريين العائدين الى بلادهم لحضور دورة الطلاب الثقافية. وجلس قربها طالب نحيل ذو وجه منمنم القسمات يضع على عينيه نظارة رقيقة وقال بصوت خفيض وهو يشد الحزام:

- الإنسان يعود الى وطنه اليوم وليس في قلبه شوق ولا لهفة.

كانت منى تعرفه، وهو شاب في قسم الهندسة الكهربائية يدعى كريم، وديع طيب، فاز بمنحة دراسية في الخارج في نفس الوقت التي فـازت هـي بمنحتهـا لدراسة الطب.

سألته بقلق:

- أتظن بأن في الأمر خدعة؟ تردد كريم لحظة ثم أجاب بلهجة متشائمة:- ان قلبي يحدثني بأننا لن نعود لاستكمال دراستنا.

لم تلبث الطائرة أن ارتفعت، وأحست منى بأن قلبها يقفز من مكانه، وانتابها شعور الغثيان فألقت برأسها الى الوراء.

ومرت مضيفة شقراء جميلة كانت توزع السكاكر على الركـاب ووقفـت خلفها.. وانتاب شابان في الصف المجاور لمنى نشوة مفاجئة فأخذا يتجاذبان والفتاة أطراف الحديث ويضحكان وينظران من النافذة ويسألانها عـن أسـماء الجبـال والوديان والأنهار.

اقتربت منها المضيفة وسألتها ما بها..

- لاشيء، انني هكذا أرتاح.. لم أنم كثيرا بالأمس..

كانت حقا معياة، لم تنم حتى الهزيع الثاني من الليل لتصحو عند الفجر على رنين المنبه.. وطاف في ذهنها خيالات عذبة وأخرى مؤلمة.. كانت هناك أسباب

تدعو للتشاؤم.. ماذا لو انها حرمت من العودة وهي على وشك التخرج؟ وما معنى هذه الدورة الثقافية، ولماذا التكاليف التي لامبرر لها؟

قال لها سامي في اليوم السابق حين جاءت اليه لتودعه:

- انني لست منشرح الصدر لهذه الدعوة يامنى.. ان حكم المباحث هنـاك لايتورع عن دناءة.. وأخشى أن يلحق بك أذى.

- إنها دعوة إجبارية.. ولكن لماذا يسيؤون الي؟ الدولة هي التي أرسـلتني في بعثة وتنفق على دراستي..

- دولة الحكم الوطني هي التي أرسلتك.. تغيرت أشياء كثيرة في الـوطن منذ ذلك الحين..

- لاتعقد الأمور ياسامي.. انني فتاة مسالمة غير حزبية، جئـت للعلـم ولا شيء سواه.

- انهم يلاحقون هناك كل من له ميول ديموقراطية..

- لدي حقا ميول ديموقراطية، ولكنني لست حزبية..

أمضت عصر ذلك اليوم وهي تتجول وسامي في مخزن عام يبحثان عـن هدايا ملائمة لذويهما.. قال سامي في الطريق:

- خاضت بلادنا غمار تجربة جديرة أن تخاض.. صهرت في تلك التجربة، وزالت شوائب الأوهام عن عينيها، وستعود أصفى وأكثر توهجا مما كانت.. شعبنا لا يخشى عليه، شعب بطل..

- ماذا تحب أن اقول لأهلك؟

- طمنيهم أنني بخير، نعيش في بلاد رائعة وبين قوم كرماء..

وجدت منى الشاب الذي تثق به وتسلمه مصيرها. كم هـو مـتفهم ناضـج العاطفة كريم النفس! وانتابها ذعر حقيقي أن يحال بينها وبينه. لقد أعاد الشاب لها ثقتها بنفسها فهو ليس على غرار والدها، ولا ذلك الوغد الذي أوقعها سوء طالعها بين براثنه.

انبثقت الذكريات من غور الماضي لتوجعها.. أي شيء هو الإنسان سـوى ذكرياته؟ سوى خلاصة ماضيه؟ سوى أمانيه؟

خيل اليها ذات يوم أنها ستحرم أفراح الحب وأشواق الأمومة لأن شابا نذلا غرّر بها.. لقد عرفت الرجل أول ما عرفته في والدها التاجر الغنـي، مـسيطرا، أنانيا لاهمّ له الاّ نفسه وملذاته، ثم عرفته في ضابط وسيم خيل اليها أنـه يحبهـا فوهبته حنان قلبها، وإذا به يلهو وإذا بالحب عنده متعة وتجارة.

كانت في السابعة عشرة من عمرها لاتزال تسرح شعرها الأجعد الخرنوبي في جديلتين غزيرتين تتراقصان على ظهرها..

انها تذكر في تلك اللحظة أمها، امرأة ساحرة الجمال في الثامنة والثلاثـين من عمرها.. تذكرها في توهجها الأخير، وتذكر العود المعلق على جدار غرفتها، وتذكر صوتها الرقيق الناعم يهمس في انفعال:

- أنظري الى هذا العود.. منذ عشرين عاما كنت صبية جميلة أعزف على العود.. وكان شعري أشقر متماوج ينسدل حتى خصري.. وكان يحبني، يهيم بـي في جنون.. يأتي الي ويقبل شعري ثم عيني وفمي ثم يقبل أناملي وأصابع قدمي.. ثم ماذا الآن؟ وأنا أعاني السرطان، وأنا أتوجع، أرجوه أن يذهب بي الى أطبـاء لبنان.. أهو في عسر حتى أعذره؟ يقول لي الطريق مغلق وليس هناك من رخصة للخروج، ثم يجد الرخصة ليذهب في شهر عسل.. إنه لاينتظـر حتـى أمـوت.. هؤلاء هم الرجال.. يحبونك وأنت في قوتك، وأنت في شبابك، وأنـت فـي ذروة جمالك، فاذا ما نالك وهن أو ذوى شبابك أو تراجع جمالك نسوا العـشرة الحلـوة وبحثوا عن متعهم عند غيرك..

ليس هناك ما يشوه نفس فتاة تتفتح للحياة مثل خيبة أملها في والدها الـذي تركها وأمها وحيدتين وهما في أمس الحاجة اليه. حقدت عليه حقدا مريرا إذ كان لايزال يسرح ويمرح مع عروسه في لبنان، وزوجته الشابة في محنتها ليس لها الاّ ابنة وحيدة قاصرة وأخ معسر كثير العيال.

أغفت منى ذات ليلة والكتاب في يدها، ثم أفاقت فجأة على شـعور كآبـة يعصرها عصرا لترى أمها قد فارقت الحياة.

لم يكن من أحد سواها في البيت.. ان الحقد المرير الذي استشعرته في تلك الليلة نحو والدها كان يمكن له أن يطبع نفسيتها بنفور تام مـن كـل الرجـال.. واندفعت في سورة حزنها تهبط الدرج في ساعة متأخرة من الليـل الـى منـزل خالها. وفجأة رأت سيارة تقف وينزل منها جارها، الملازم الشاب الذي يقيم فـي ملحق البناء. كانت كثيرا ما تلتقي به فيرنو اليها بنظرات جريئة، ولكن قلبها لـم يخفق له بالحب. لم تكن حالتها طبيعية فمد يده لمساعدتها في نكبتها.. قال لها:

- لايحسن بك أن تقطعي الشوارع الخالية من المارة في منتصف الليل..

وأوصلها الى منزل خالها.. كان مهذبا رقيقا وواساها في محنتها.. وأحبته.. يدفعها نحوه فراغ موحش رهيب، الخوف من الموت، والإحساس بتفاهة الحيـاة، والتمرد على والدها الذي عاد يربط في عنقه عقدة حمراء، ويصطحب معه زوجته الثانية، وهي راقصة أنفق مبالغ طائلة لأخصائي ليقوم بعملية تجميل لثدييها.

عرفت بالأمر من الملازم صقر، انه لابد يستقصي أحوال عائلتها قبـل أن يخطبها.. أرادت أن تجعل للحب حدودا بينها وبينه، فاذا بها تصحو لتجـد وقـد تلاشت بينهما الحدود.. لم تكن عابثة لتستسيغ هذا الدرب.. هالها الأمر وانتابهـا نحوه شعور مزيج من الحب والكره، وغرقت في ذلك الشعور حتى لم تعد تتبـين حقيقة مشاعرها.

كان يتكشّف لها عن شاب تافه علّق أشواقه على سـيارته.. فهـو لا يفتـأ يتحدث عنها حديث هيام.. ان زملاءه يحسدونه عليها.. إنهم يتميزون غيظا لأنـه يملك سيارة. وبدا لمنى أنه فرح بسيارته الى درجة لايصدق معهـا بأنـه يملـك سيارة.. ولكن السخف قد يغتفر لإنسان ما مع التصاعد العاطفي، ومع ذلك كانـت منى تشاهد وسامته أحيانا وقد شوهتها تعابير كريهة، مزيج من القسوة والـشره.. كيف يرق أنفه ويختلج بالقسوة والعجرفة والإستهتار والإحتقار إذ يتحـدث عـن

جنوده وعن الطريقة التي يعاملهم بها.. كان يستخدم الجند في خدمتـه الخاصـة ويضربهم لأقل هفوة، فقالت له منى:

- ألا تخشى أن تفقد زمامك عليهم حين تحتدم المعركة وتكون حيـاة كـل جندي مهددة بالفناء أن لايرتدوا عليك؟

- لا، انهم أذل من أن يفكروا بالتمرد والإنتقام.. انهم كالسوائم لايفهمون الاّ لغة الركل بالأقدام.

وكانت تشعر أنه مغامرأو فشار لاحدود لكذبه، وهو يقص عليهـا قصـصا أشبه ما يشاهد في الأفلام، حدثها يوما كيف قفز فوق هوة بسيارته متحديا زملاءه أن يفعلوا فعله! لم تكن تدري وهي لاتزال غرّة أي شيء ينفرها منه.. حدثها أيضا عن صديق له تزوج فتاة كويتية غنية وأضاف:

- هكذا يكون الزواج، صفقة رابحة!

وجهه يتقلّب في دقائق معدودات من ابتسامة ساحرة الى نظرات شرسة الى ضحكة كلها غباء.. ولكن منى كانت قد ربطت مصيرها به، فعليها أن تدفع الثمن زواجا من ذلك الشاب التافه.

انها تشعر بنفسها صافية كبلّور مصقول، ولكنها حزينة يائسة حتى المـوت لأن عليها أن تضحي بالزواج من هذا الشاب.

قالت له:

- اخطبني من أبي.. انني أخشى أن يكتشف أحد علاقتنا.

صمت لحظة ثم قال وأنفه يرق ويختلج:

- ان فتاة تهب نفسها لايأمنها الرجل زوجة له..

صعقت، وأحست بمهانة جارحة وغضب أعمى يتحول الـى إعيـاء فكـر وكأنها تقذف من أرجوحة عالية وتفقد الرشد.. وزاغت عيناها فلا ترى بهما ذلـك الشاب الذي فقد الإحساس والمروءة..

- هكذا اذن أيها الوغد!

واستدارت تريد أن تهرب بنفسها:

- قف بي هنا، أريد أن أرجع سيرا على الأقدام.

وطوقها ليمنعها من النزول، وسمعت صوته وكأنه آت من أعماق هوة ملأى بالشر والإثم:

- أتزوجك ان دفع لي والدك خمسين ألف ليرة سورية وقام بتجهيز البيت.

وانكشف لها فجأة على حقيقته، على حقارته. ورأت وجهه الوسيم في تلـك اللحظة يتحول في عينيها الى وجه قرد.. لم تكن تصدق أن نفوسا تبلغ من الخسة ووضاعة الأخلاق هذا المستوى.. كان والدها لايستطيع أن يتخلـى عـن متعتـه مدفوعا بشهواته، ولكنه كان يدفع المال في سبيلها.. أما ذلك الوغد فكـان يريـد المتعة وفوقها ابتزاز المال.. لم يكن يملك حتى شرف جموح العاطفة التي كانـت لوالدها.. وأحست بالغثيان منه، وبنفسها تتطهر فجأة وتتحرر من عاطفة قهرتهـا وأذلتها أشهر طويلة..

ترك المنزل دون أن يدفع الأجرة لوالدها، وجعل من قصتها فكاهة يتندر بها بين أصدقائه.. وبلغ سمع منى ما يقول فلم تبال. "أن يخدع الإنسان أمر مؤسـف، أما أن يكون نذلا فأمر مخجل، فكيف يتبجح به ان لم يكن قد بلـغ مـن الحقـارة أقصاها؟"

هكذا كانت منى تحدث نفسها وهي تجاهد ببطولة لتـستعيد ثقتهـا بنفـسها وايمانها بطهارة قلبها. انها عانت في ذلك العام إذلالا آخر إذ رسبت.. انهـا لأول مرة في حياتها تشعر بهوان الرسوب، وأكبت تبكي بحرقة وقد أصـابها انكـسار رهيب.. ولكن لماذا؟ هل كان الأمر مفاجئا لها وهي موزّعة القلب والفكر طـوال العام؟.. تركت ورقات على بياض، ومع ذلك أملت أن تنجح على حرف ولو لـم يكن بينها وبين النجاح سوى شعرة فباءت آمالها بالخيبة.

ان خواطر رعناء أخذت تطوف بها.. تود لو تشعل بنفسها النار، تـود لـو تلقي بنفسها من الطابق الثالث الى الشارع، تريد أن ترتمي أمام سيارة، أو تبتلـع علبة من حبوب الأسبرين فتنتهي من الحياة. ولكن من يبالي بها لو فعلـت ذلـك، ومن يبكي عليها؟ لاأحد سوى خالها، وأبناءه الصغار الـذين تـودهم ويودونهـا،

فتزرع في قلوبهم الصغيرة الحسرات.. في محنتها النفسية لم ينقذها الاّ وجـوههم البريئة وضحكاتهم الصافية، فلم تشأ أن تسكب في قلوبهم حزنـا عليهـا.. حتـا أخطأت الطريق وضعفت، ولكن ليس هذا نهاية الحياة.. عزمت أن تكون قوية في نفسها، وتبدأ من حيث فشلت، وتكون أحكم وأقوى ارادة وأكثر جدية.

عاودت منى تلك الصور، خاطفة وهي تعود الى وطنها. انها لتعجب كيـف استطاعت أن تقف مرة أخرى على قدميها وتجابه الحياة بشجاعة.. نجحـت فـي مسابقة ونالت منحة دراسية وها هي على وشك أن تصبح طبيبة، وسـتختص ان أتيحت لها الفرصة بطب الأطفال.. كم تحب الأطفال! الأطفال الأصحاء الأقوياء.. وذكرت أبناء خالها فذاب قلبها لهم حنانا.. عاشت معهم عامين بعـد أن نجحـت بتفوق في البكالوريا وعينت في مدرسة ابتدائية.. فعلت ذلك إثر مشادة بينها وبين زوجة أبيها.. استقلت عن والدها ووجدت أسرتها الحقيقية بين أبناء خالهـا الـذين أولعت بهم ولعا شديدا، فكانت تنام معهم وتنسج لهم الكنزات الصوفية وتـشتري لهم اللوازم المدرسية وتساعد خالها بما تيسّر من راتبها الضئيل.

أحست مها وهي تعيش في بيت خالها بأنها إنسان جديد وتناست كل شـيء عن ذلك الرجل الذي زرع في قلبها المرارة والألم.. كانت القلوب الصغيرة التـي تحبها وتلتهف لعودتها تبلسم جراحها، بل وتملأ قلبها رضى وغبطة.

بلغت منى دمشق عند المساء ومرّت بها السيارة من أمام العمارة التي يسكن فيها والدها، فلم تتوقف، ولم تشعر بالرغبة في رؤياه، بل عرجت الى حي قـديم حيث يسكن خالها. كل شيء على حاله، بل بدا أكثر كآبة وفقرا وتهـدما. كيـف يمكن لإنسان عصر الأقمار الصناعية أن يعيش في مثل هـذه الأزقـة والبيـوت الخربة؟

استقبلتها العائلة كأنها ملاك نزل من الـسماء . ووزعـت الهـدايا.. كـان الأطفال قد كبروا وزادوا واحدا هو صبي في الثالثة.والكبرى غدت في الـسابعة عشر. كان بين الهدايا ثياب ودمى وآليات ومعدات طبية وأحذية صـوفية فـرح

الصغار بها فرحا لايوصف.. سألت منى امرأة خالها وهي تضع على كتفيها الشال الصوفي الكبير الذي اختارته لها:

- أين خالي؟ هل هو لايزال يعمل في لبنان؟

كان من عادته أن يسافر للعمل في لبنان فلم تستغرب منى غيابه. اذ كـان ينظم حسابات بعض المحلات الصغيرة ليزداد دخله.

قالت امرأة الخال منتحبة:

- بل هو في السجن..

- في السجن!

نعم يا منى انهم يعتقلون الناس بالمئات وكلهم يتهمون بمناوأة السلطة.. لست أعرف من ابن الحرام الذي وشى به.. ان خالك لايهتم كما تعلمين بالسياسة، يعول ثمانية أفواه، يلاطش المسكين يمينا وشمالا كي يؤمن لهم حاجاتهم..

- وكيف تدبرون أموركم؟

- لاتخلو الدنيا من المحسنين.. والـصغار يـساعدون، تركـوا مدارسـهم ويعملون.

- ماذا يعملون في سنهم؟

- قلت لنفسي "يتعلمون صنعة تفيدهم"، حسام عند نجار وعصام عند خيـاط وراشد عند صانع أحذية. أما دعد فقد أبقيتها تدرس فبعد عـام تنهـي دراسـتها الثانوية ولعلها تصبح معلمة فتساعدنا ريثما يفرجها الله على خالك.

- ألا يساعدكم والدي بشيء؟

- لاتحدثيني عن والدك.. لم يكن فيه خير لزوجته ولا لبنته فكيف يكون فيه خير لنا؟

- ولكنه مسؤول عنكم لابصفة القربى بل لأن خالي محاسب عنده. في كل العالم يجبره القانون على رعايته ورعاية أسرته.

- هذا عندكم، أما عندنا فليس هناك قانون يجبره على شيء.

لم تستطع منى أن تنام ليلتها.. أحبت دعد التي تركتها في الثانية عشرة فاذا بها الآن فتاة ناضجة في السابعة عشرة.. كانت الفتاة متوقدة الذكاء وهي أمل أمها واخوتها في أن تنشلهم من هوة العوز.. ان الفتاة ستحمل وهي في سـن صـغيرة العبء الثقيل لأسرة كبيرة.. ليس في هذا عدل أبدا.. وعزمت منى على أن تقتصد من راتب المنحة يوم تعود وتساعد عائلة خالها. وتمنت لو كانت أنهت دراسـتها قبل أن تستدعى وحملت معها شهادتها فسعت في عمل لها وكانـت قـرب هـذه الأسرة في محنتها.. ذكرت في غصة أن دعد هي في تلك السن الخطرة من تفتّح شبابها.. وذكرت عامها السابع عشر.. لو أنها وجدت قريبا انـسانا رفيقـا يفـتح عينيها للنور لما عانت كل تلك الآلام، ولما ذرفت كل تلك الـدموع.. لايجـب أن تبقى دعد ساذجة، لايجب أن يسرق لها نذل أفـراح الحـب الـصادق، وأشـواق الأمومة!

التحقت منى في اليوم التالي بدورة الطلاب الثقافية في فندق فـي الزيـداني أعد لطلبة الطب، وكانت تنام في الفندق وتستمع الى المحاضرات وتـصغي الـى المناقشات التي تدور والتي يشارك فيها طلبة أنهوا جامعاتهم ويتابعون دراسـات عليا في أحد التخصصات، وكانت تذهب في أيام الجمع لزيـارة أسـرة خالهـا.. وكادت الدورة تشرف على الإنتهاء حين استدعيت الى الشعبة السياسية للتحقيـق معها. كان العقيد المسؤول عن البعثات هو نفسه الملازم الذي كانـت لهـا تلـك التجربة السيئة معه.. تودد اليها وأخذ يطري جمالها الذي تألق، فأحست بانقبـاض وقلق تحولا الى ذعر. قال لها أنها لن تجد عملا اذا عادت بشهادتها مـن البلـدان الاشتراكية، وأنه مستعد أن يحصل لها على منحة فتكمل دراستها فـي الغـرب.. ولمّح من طرف خفي بأنه يريد الزواج منها..

عصف الغضب بقلبها فلا تدري ما تقول له.. انه يستطيع بمركزه أن يؤذيها ولن تجد قانونا يحميها.. قالت له :

- انني صرفت نظري عن الزواج وكل ما يشغلني عن دراستي، بل أريـد أن أتخصص في طب الأطفال، ولا أجد مبررا لتغيير مكان دراستي.. أما العمـل

فانني ان لم أجد عملا في الدولة أجعل من زريبة دجاج عيادة لي وأعـالج فيهـا الناس..

ثار غضبه لعنادها واعتدادها بنفسها وقال لها:

- أنظري الى هذه الإضبارة! انني أعرف كل شيء عنك، وأعرف علاقتك بأشخاص هم أعداء للحكم.. انني أملك أدلّة لإدانتك بل حتى أن ألقـي بـك فـي السجن، لولا حب لك في قلبي لم أستطع التخلص منه.

قالت له متهكمة:

- والله إذا كان الحكم يسير بعقلية مزورين وشاربي حشيش لاوزن للقانون ولا لشرف الدولة عندهم، فأنت تستطيع أن تزوّر عني ما تـشاء.. ان الـسجناء عندكم لا يحاكمون ولا يدافعون عن أنفسهم ولو كانوا أبرياء..

كم ندمت في تلك اللحظة لأنها لم تصغ الى نصيحة سامي، ولكن لـم تكـن تدري أن الإنهيار الأخلاقي في وطنها قد وصل الى هذه المرحلة من السوء..

قال لها:

- عندك أسبوع لتفكري بالعرض الذي اقترحته عليك..

- لست بحاجة لأسبوع! أقول لك منذ هذه اللحظة بأنني أرفضه.

قال متظاهرا بالأسف:

- أنت غير متعاونة، ولهذا أرى نفسي مضطرا لأقطع عنك المنحة.

- اقطعها.. انني أجد طريقة مع ذلك لإنهاء دراستي.

- وأسحب جواز سفرك.. اعلمي أن اسمك منذ هذه اللحظة قد عمّم على كل منافذ البلد..

في اليوم التالي قابلت كريم من دورة الطلاب الثقافية وهو الشاب الذي جلس قرب مقعدها في الطائرة.. ذهبت الى حيث يقيم في بيت أهله وسألته:

- هل استدعيت الى الشعبة السياسية؟

أطرق طويلا دون أن يحري جوابا.. كان العرق يتصبب من جبينه بغزارة، وبدا غارقا في خجل يخرسه. وقال بعد لأي: "نعم!"

- وهل سمحوا لك بالعودة؟

- نعم.

- أنا لم يسمحوا لي بالخروج.. جئت اليك ولي رجاء عنـدك أن توصـل رسالتي هذه لسامي.. انني أخشى أن أبعث بها في البريد فلا تصله.

أخذ كريم الرسالة وقلبها بين يديه، ثم وضعها في جيبه، ولكنه لم يوصـلها أبدا الى سامي.. ومرت شهور واذا بها تقرأ ذات يوم في صحيفة تقدمية نبأ انتحار شاب كانت المخابرات تضغط عليه لكتابة تقارير عن رفاقه، ولقد أخذ يكتب لهـا تقارير مزوّرة لاقيمة لها فكشف أمره وألغيت منحته وطلب منه العودة الى بلـده، ففضل الموت على اختيار موت معنوي له إذ كان يعلم سلفا ماينتظره.

أما منى فانها عادت الى التعليم الابتدائي في مدرسة خاصة، وكـان أهـل الحي جميعهم يأتون اليها لتزرقهم الإبر وتصف لهم العلاج في الحالات البسيطة، ولما تغير الحكم عادت واستكملت دراستها، ولكن سامي الذي لم تصله رسـالتها، كان حينذاك قد تزوج!

* * *